

الصَّدِيقَتَانِ

الصَّدِيقَتَانِ

تأليف
كامل كيلاني



الصَّدِيقَاتِ
كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٤٠٩
تمك: ٧١٩ ٧٧٧ ٩٧٨ ٠١٠ ٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

الصَّدِيقَتَانِ

(١) احْتِجَابُ «أُمُّ خِداشَ»

كانتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» وَ«أُمُّ خِداشَ» صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَيْنِ. وكانتْ كُلُّ تَاهُمَا تُحِبُّ الْأُخْرَى، وَتُخْلِصُ لَهَا، وَتَمْحَضُهَا الْوُدُّ، وَلَا تَأْلُو جُهْدًا فِي إِرْضَائِهَا، وَلَا تَضَنُّ عَلَيْهَا بِعَزِيزٍ فَلَا غَالٍ، وَلَا تُخْفِي عَنْهَا شَيْئًا مِنْ أُسْرَارِهَا. وكَانَتَا تَأْكُلَانِ — مَعًا — مِنْ صَحْفَةٍ وَاحِدَةٍ (طَبَقٌ وَاحِدٌ)، وَتَعِيشَانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ. وَقَدْ نَشَأْنَا وَتَرَعَّرَتَا وَشَبَّتَا مُتَحَالِفَتَيْنِ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْحُبُّ. أَمَّا «أُمُّ يَعْفُورَ» فَهِيَ كَلْبَةٌ صَغِيرَةٌ جِدًّا، وَهِيَ ظَرِيفَةٌ صَفْرَاءُ الْإِهَابِ (الْجَلْدِ)، أَنِيقَةُ الْجَلْبَابِ.



وَأَمَّا صَدِيقَتُهَا «أُمُّ خِداش» فَقِطْهُ كَبِيرَةُ، ذَاتُ شَعْرٍ حَرِيرِيٌّ، وَلَهَا ذَنْبٌ يُغَطِّيهُ الشَّعْرُ الْكَثِيفُ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ احْتَجَبَتْ «أُمُّ خِداش» عَنْ صَدِيقَتِهَا، وَلَمْ تَأْتِ لِتَحِيَّتِهَا، عَلَى عَادَتِهَا. وَبَحَثَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» فِي سَلَةِ «أُمُّ خِداش» الَّتِي أَلْفَتِ الرُّقادَ فِيهَا، فَلَمْ تَعْثُرْ لَهَا عَلَى أُثْرٍ. فَحَارَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»، وَلَمْ تَدْرِ سَرَّ احْتِجَابِ صَدِيقَتِهَا الْعَزِيزَةِ، وَخَشِيتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَلْمَ بِهَا طَائِفُ سُوءٍ.

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» الْوَفِيفَيَّةُ: «إِنَّ هَذَا الْحَسَاءَ لَا يَزَالُ غَالِيًّا (شَدِيدُ الْحَرَارَةِ)؛ فَلَا صِرْبَ قَلِيلًا، حَتَّى يَبْرُدُ، لِعَلَّ صَدِيقَتِي «أُمُّ خِداش» تَأْتِي لِتُشَرِّكَنِي فِي الطَّعَامِ.»

ثُمَّ جَلَسَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» عَلَى رِجْلِيهَا الْخَلْفَيَّتَيْنِ، وَظَلَّتْ تَسْتَنْشِقُ بُخَارَ الْحَسَاءِ الْمُتَصَاعِدِ بِفِيهَا الْأَسْوَدِ، وَتَنَامَلُ فِي الصَّحْفَةِ، وَهِيَ تَقُولُ لِلْفَسِّهَا: «لَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنِ كُلَّ شَيْءٍ! فَإِنَّ «أُمَّ خِداش» أَخْبَرَتِنِي ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهَا سَتُفَاجِئُنِي — بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ — مُفَاجَأَةً مُدْهَشَةً. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي: أَيْةً مُفَاجَأَةً أَعْدَتْهَا لِي؟!»

وَاشْتَدَّ بِ«أُمُّ يَعْفُورَ» الْقُلُقُ، فَسَارَتْ حَائِرَةً تَبَحُّثُ عَنْ صَاحِبَتِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَشَمَّسَ أَرْكَانَ الْبَيْتِ وَمَخَابِيَّهُ، عَلَّهَا تَهْتَدِي إِلَيْهَا.

(٢) أَطْفَالُ «أُمُّ خِداش»

وَأَنْتَهَى بِهَا الْمَطَافُ إِلَى غُرْفَةِ الْغُسْلِ الصَّغِيرَةِ، فَبَصَبَصَتْ (حَرَكَتْ ذَنَبَهَا) مَسْرُورَةً بِتَوْفِيقِهَا، وَرَفَعَتْ عَيْنِيهَا إِلَى صُندُوقِ فَوْقِ الرَّفِّ، ثُمَّ حَيَّتْ صَدِيقَتِهَا مُبْنِهِجَةً، قَائِلَةً: «سُعِدَ يَوْمُكِ يا «أُمُّ خِداش». لَقَدْ سَاوَرَنِي الْقُلُقُ عَلَيْكِ، فَمَاذَا أَخْرَكَ عَنْ تَحْيَةِ صَدِيقَتِكِ؟ وَمَاذَا تَصْنِعِينِ فَوْقَ هَذَا الرَّفِّ الْعَالِي؟!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»: «إِنِّي مُفْضِيَةٌ إِلَيْكِ بِأَمْرٍ يَدْعُونِي إِلَى الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ: لَقَدْ فُوْجِنْتُ مُفَاجَأَاتِ حَمْسًا، وَرَأَيْتُ غَرَائِبَ حَمْسًا...!»

فَلَمْ تَفْهَمْ «أُمُّ يَعْفُورَ» شَيْئًا مِمَّا تَعْنِيهِ، وَرَفَعَتْ فَاهَا فِي الْهُوَاءِ وَهِيَ حَائِرَةُ، فَسَمِعَتْ صَوْتَ طِفْلٍ صَغِيرٍ يَبْيَعُ فَجَاءَهُ مِنَ الصُّندُوقِ مُجْمَحِمًا: «مِيا ... وْ! مِيا ... وْ! أَمَادُ!»



فَأَدْرَكَتْ «أُمٌّ يَعْفُورَ» السَّرَّ في احْتِجَابِ «أُمٌّ خِدَاشَ»، وَظَلَّتْ تَقْفِرُ فِي الْغُرْفَةِ، عَلَى ثَلَاثَ أَرْجُلٍ، مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ، كَمَا تَقْعَلُ الْكِلَابُ إِذَا اسْتَوَى عَلَيْهَا الطَّرْبُ وَالْفَرَحُ. ثُمَّ هَنَّاتُهَا بِهَذِهِ الْقِطَاطِ الْعَزِيزَاتِ. فَقَالَتْ «أُمٌّ خِدَاشَ» مُزْهُوَةً فَرْحَانَةً: «أَلَمْ أَقْلُ لَكِ إِنَّهَا مُفَاجَاتٌ خَمْسٌ؟ نَعَمْ. فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْلَادِ الْخَمْسَةِ هُوَ مُفَاجَأَةٌ سَارَةٌ. فَانْظُرِي بِرِبِّكِ إِلَى هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعَزِيزَةِ، الَّتِي مَلَأَتْ قَلْبِي سَعَادَةً وَإِعْجَابًا!»

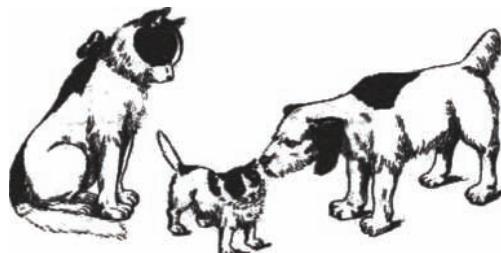
وَظَلَّتْ «أُمٌّ خِدَاشَ» تَلْحُسُ بِلِسَانِهَا جِلْدَ أَوْلَادِهَا الْقِطَاطِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً: «آهُ لَوْ تَعْلَمِينَ كِيفَ فُتِنْتُ بِحُبِّ هَذِهِ الْأَطْفَالِ الصَّغِيرَةِ! إِنَّهَا زِيَّةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا، وَمَصْدَرُ سَعَادَتِنَا وَمَبْعَثُ أَنْسِنَا. فَهَلْمِي — أَيُّهَا الْحِيَّةُ — فَانْظُرِي أَطْفَالِي الْأَعِزَاءَ. فَإِنِّي أَعْرِفُ مِقْدَارَ شَغْفِكِ بِالْأَطْفَالِ، وَحَدِّبِكِ عَلَيْهِمْ. هَلْمِي فَاصْعَدِي إِلَيَّ — يَا «أُمٌّ يَعْفُورَ» — وَتَسْلِقِي هَذَا اللَّوْحَ الصَّغِيرَ».

فَوَقَفَتْ «أُمٌّ يَعْفُورَ» مُسْتَنِدَةً إِلَى الْحَائِطِ، وَحاوَلَتْ أَنْ تَسْلَقَ اللَّوْحَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ — لِصِغْرِ حِسْمِهَا — وَلَمْ يَصِلْ فُوهَا إِلَى اللَّوْحِ. فَقَالَتْ لِصَاحِبِتِهَا: «مُحَالٌ عَلَيَّ أَنْ أَصِلَّ إِلَى هَذَا اللَّوْحِ؛ فَإِنَّ أُمِّي لَمْ تُعْلَمْنِي: كَيْفَ أَتَسْلُقُ، كَمَا عَلَمْتُكِ أُمِّكِ. وَلَسْتُ أَدْرِي: مَا الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكِ هَذَا الْمَكَانَ الْمُرْتَفَعَ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحْجَى بِكِ وَاهْدَى: أَنْ تَبْقَيِ فِي سَلَّتِكِ الَّتِي تَنَامِينَ فِيهَا، إِلَى جَانِبِ سَرِيرِي؟»

فَقَالَتْ أُمُّ خِداشَ، وَهِيَ تَهُزُّ رَأْسَهَا مُتَعَجِّبَةً مِنْ غَفْلَةِ صَدِيقَتِهَا: «شَدَّ مَا تُخْطِئَنَّ
فِي حُكْمِكِ، يَا أُمَّ يَعْفُورَ». عَلَى أَنَّنِي أَلْتَمِسُ لِكِ الْعُذْرَ، لِأَنَّكِ مَا تَزَالِينَ طَلْفَةً، عَيْرُ مُجَرَّبَةٍ.
وَاحِبُّ أَنْ أَبْصِرَكِ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ؛ فَإِنَّ الْقِطَّةَ الْذِكِيرَةُ الْحَارِمَةُ، تَرَى مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُخْفِي
أَبْنَاءَهَا – دَائِمًا – فِي الظَّلَامِ، حَتَّى لَا تَقْعَ عَلَيْهِمْ عَيْنُ كَائِنٍ كَانَ، فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ
حَيَاتِهِمْ. عَلَى أَنَّنِي لَنْ أَبْخَلَ عَلَيْكِ بِرُؤُوْيَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَجْمَلُهُمْ شَكْلًا، وَأَبْهَاهُمْ مَنْظَرًا؛
لَأَنَّهُ مُرَقَّشٌ بِالْأَلْوَانِ ثَلَاثَةً، وَلَيْسَ فِي الْقِطَاطِ أَجْمَلُ مِمَّنْ يَجْمَعُ هَذَا الْعَدَدَ مِنَ الْأَلْوَانِ. وَقَدْ
أَسْمَيْتُهُ: أَبَا الشَّرْقِ.»

وَنَهَضَتْ أُمُّ خِداشَ وَوَضَعَتْ صَغِيرَهَا «أَبَا الشَّرْقِ» عَلَى عُنْقِهَا – فِي خَفَّةٍ وَرَشاقَةٍ
– حَتَّى لَا تُزَعِّجَهُ، وَقَفَزَتْ إِلَى الْلَّوْحِ، وَهِيَ رَافِعَةٌ رَأْسَهَا، حَتَّى لَا يَسْقُطَ مِنْهَا صَغِيرُهَا
الْحَبِيبُ.

ثُمَّ وَضَعَتْهُ عَلَى الْلَّوْحِ، وَهِيَ مَرْهُوَةٌ تَائِهَةٌ بِهِ أَمَامَ صَدِيقَتِهَا، وَقَالَتْ لَهَا: «كَيْفَ
تَقُولِينِ؟ لَا جَرَمَ أَنَّهُ جَمِيلٌ! أَلِيُّسْ كَذَلِكِ؟»
فَتَرَاجَعَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» خُطْوَةً، وَنَكَرَتْ إِلَى «أَبِي الشَّرْقِ» مَدْهُوشَةً تَعْجَبُ مِنْ رَأْسِهِ
الْمُسْتَدِيرِ، وَعَيْنَيْهِ الْمُقْفَلَتَيْنِ، وَجَسْمِهِ الْلَّيْنِ، وَذَنْبَبِهِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَخْتَلِجُ.
فَقَالَتْ «أُمُّ خِداشَ» لِصَاحِبَتِهَا، وَهِيَ تُرْبَّتُ – فِي رِفْقِ وَحَانَ – قِطْطَهَا الصَّغِيرَةَ
الْمُغْمَضَةِ الْعَيْنَيْنِ: «أَلَسْتِ تَرَيْنِهِ بِدِيْعَا، يَا أُمَّ يَعْفُورَ؟»



فَاقْتَرَبَتْ أُمُّ يَعْفُورَ مِنْ «أَبَي الشَّرْقِ»، وَشَمَّتْهُ – وَهِيَ مُرْتَحِفَةٌ مُنْفَسَحَةُ الْأَرْجُلِ – وَقَالَتْ خَبْلَةً: «لَا جَرَمَ أَنْ «أَبَا الشَّرْقِ» لَطِيفٌ، وَلَعْلَهُ يَزِدُّ جَمَالًا حِينَ يَفْتَحُ عَيْنَهُ!»

(٣) غَضَبُ «أُمُّ خِداشَ»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداشَ» مَحْزُونَةً: «كَيْفَ يَزِدُّ جَمَالًا؟ إِنَّهُ سَيِّفَتْهُ عَيْنَيْهِ قَرِيبًا. أَلَا تَعْرِفِينَ أَنَّ الْقِطْطَةَ جَمِيعًا – بَعْدَ أَنْ تُولَدَ – تَظَلُّ عَمْيَاءً مُدَّةً أَيَّامٍ ثَمَانِيَّةً أَوْ تِسْعَةً؟ عَلَى أَنِّي لَا أَرَى وَلَدِي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْجَمَالِ، فَهُوَ عِنْدِي أَجْمَلُ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَائِنَاتِ. أَفَاهْمَهُ أَنْتِ مَا أَقُولُ، أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْغَافِلَةُ؟ فَإِذَا لَمْ تَفْهَمِي هَذَا الْكَلَامُ، وَلَمْ تُؤْمِنِي بِهِ، فَانْصِرِي مِنْ فَوْرِكِ – وَلَا تُرِينِي وَجْهَكِ بَعْدَ الْيَوْمِ!»

ثُمَّ أَمْسَكَتْ «أُمُّ خِداشَ» بِمَوْلُودِهَا الْحَبِيبِ، وَقَفَزَتْ إِلَى صُندُوقِهَا مُغْضَبَةً مُحْنَقَةً. وَعَجَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مِمَّا رَأَتْ عَجَبًا شَدِيدًا. وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ – فِي صَاحِبَتِهَا – إِلَّا دَمَاثَةَ الْخُلُقِ، وَلِينَ الْعَرِيَّكَةِ، وَلَمْ تَرَ غَضَبَهَا إِلَّا فِي هَذَا الْيَوْمِ.

وَقَدْ أَدْهَشَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَلَهُبِ عَيْنَيْهَا، وَإِمْعاَنِهَا فِي إِسَاعَتِهَا وَالسُّخْطِ عَلَيْهَا؛ وَحَرَّنَهَا حُزْنُ صَدِيقَتِهَا. ثُمَّ قَالَتْ لَهَا مُتَالِمَةً: «لَا عَلَيْكِ – يَا عَزِيزَتِي «أُمُّ خِداشَ» – فَإِنِّي لَمْ أَتَعَمَّدْ أَغْسَابِكِ، وَلَمْ أَقْسِدْ إِلَى إِسَاعَتِكِ. وَإِنِّي مُعْتَدِرَةٌ عَمَّا فَرَطَ مِنِّي. وَسَرَرَتِنِ: كَيْفَ أَحِبُّ إِلَّكَ الْقُطْطِيَّاتِ الْعَزِيزَاتِ؟

وَلَكِنَّ «أُمُّ خِداشَ» لَمْ تَهُدُ ثَائِرَتُهَا، فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ يَعْفُورَ»: «وَدَدْتُ لَوْ تَعْلَمِينَ، يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةِ ...»

فَقَاطَعَتْهَا «أُمُّ خِداشَ» صَائِحَةً: «لَسْتُ صَدِيقَةً لَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَا أُحِبُّ أَنْ تَتَخَذِّنِي صَدِيقَةً بَعْدَ الْآنِ. فَقَدْ صَحَّ مَا قَالَتْهُ لِي أُمِّي: إِنَّ الْكِلَابَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُخْلِصَ فِي صَدَاقَتِهَا لِلْقِطْطِ. وَكَيْفَ تَصْفُو قُلُوبُنَا، وَنَحْنُ لَمْ نُنْسَأْ تَنْشِئَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ نَدْنَ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «لَا تَنْسِي أَنَّنَا – عَلَى ذَلِكَ – مِنْ أُسْرَةِ وَاحِدَةٍ.»

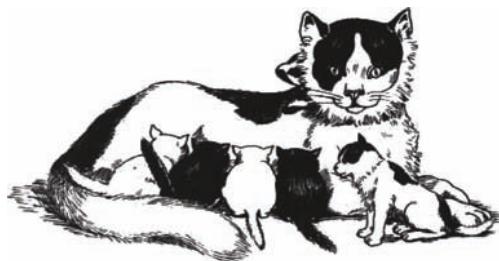
فَقَالَتْ لَهَا: «لَسْتُ أَشْكُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ فَصِيلَتَنَا وَاحِدَةٌ، لِأَنَّنَا جَمِيعًا مِنْ آكِلي الْلَّحْمِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَصِيلَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْن: قِسْمًا: مُهَذِّبُ الْخُلُقِ، وَقِسْمًا: غَلِيظُ الطَّبِيعِ.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مُعَايِبَةً: «مَا أَحْسَبُكَ تَعْنِينِي بِهَذَا التَّعْرِيْضِ.»

فَقَالَتْ لَهَا: «مَا عَنِتُّ سِوَاكَ — يَا «أُمَّ يَعْفُورَ» — فَإِنَّ الْكِلَابَ غَيْرُ مُهَدِّيَةٍ، وَقَدْ عَرَفْتُهُمُ الْقِطَاطُ جَمِيعًا بِسُوءِ الْأَدْبِ، وَغَلَظِ الطَّبَاعِ، وَأَنَّى لَكُمُ التَّهْذِيبُ، وَدَمَانَةُ الْخُلُقِ؟ أَسْتُمْ أَنْتُمْ وَالثَّعَالِبُ الْمَاكِرَةُ أَبْنَاءَ أَعْمَامٍ؟ أَلَيْسَ الدَّئَبُ الْقَاسِيَةُ الْفَتَاكَةُ — فِي الْغَابَاتِ — مِنْ بَنَاتِ أَعْمَامِكُمُ الْأَدَنَّى كَذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ»: «لَيْسَ مِنْ خَطَئِي — أَيْتُهَا الْعَزِيزَةُ — أَنْ تَكُونَ الثَّعَالِبُ وَالدَّئَبُ مِنْ أَبْنَاءَ أَعْمَامِنَا، وَبَنَاتِ عَمَّاتِنَا! عَلَى أَنَّنِي أَذْكُرُ مَا حَدَثَتِي بِهِ — ذَاتَ يَوْمٍ — إِذْ قَرَرْتُ أَمَامِي أَنَّ الْأَسَدَ مِنْ أَقْارِبِكِ، وَهُوَ — فِيمَا أَعْلَمُ — وَحْشٌ ضَارٌ، قَاسِيُ الْقُلْبِ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»: «لَسْتُ أَنْكُرُ هَذَا، فَإِنَّ السَّبْعَ هُوَ أَبْنُ عَمِّي بِلَا شَكٍ. وَإِنِّي بِذَلِكِ لَفَخُورَةٌ مَزْهُوَةٌ؛ لِأَنَّهُ نَبِيلٌ عَظِيمٌ، يَعِيدُ الْهِمَةَ، عَزِيزُ النَّفْسِ، وَهُوَ مَلِكُ الْحَيَوانِ، وَسِيدُنَا الْأَمْرِ الْمُطَاعُ. وَنَحْنُ مِنَ الْأَمْرَاءِ، لَأَنَّنَا مِنْ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ السَّامِيَّةِ. فَلَا غَرَوْ إِذَا دَانَ لَنَا النَّاسُ بِالْاحْتِرامِ وَالْإِجْلَالِ، فَلَمْ يُطْوِقُوا أَعْنَاقَنَا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَطْوَاقِ، كَمَا يَفْعَلُونَ مَعْنَمُ مَعْشَرِ الْكِلَابِ؛ لَأَنَّنَا وُلِدْنَا وَعَشْنَا أَحْرَارًا، لَا سُلْطَانٌ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا!»



وَكَانَّا ضَجَرَتِ الْقُطَطِيَّاتُ الصَّغِيرَاتُ بِهذا الْحِوارِ الطَّوِيلِ، فَابْتَعَثَتْ مُوَأْهًا خَافِتًا مِنْ قَاعِ الصُّنْدُوقِ. فَمَالَتْ «أُمُّ خِداش» إِلَى أَطْفَالِهَا، وَقَدْ اضْطَجَعَتْ عَلَى جَانِبِهَا، وَفَسَحَتْ أَرْجُلَهَا، وَجَمْجَمَتْ قَلِيلًا. فَسَكَتَ صِغَارُهَا، وَمَدُوا أَسْنَتَهُمْ بِاِحْتِيَانٍ عَنْ ثُبُّيِّ أُمِّهِمْ — يَمِنَةً وَيَسِّرَةً — وَظَلَّتْ أَسْنَتُهُمُ الْوَرْدِيَّةُ الصَّغِيرَةُ تُطْقِطِقُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَظَلَّتْ أُمُّهُمْ تَلْحَسُهُمْ،

وَهُمْ يَرْضَعُونَ، وَهِيَ حَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَتْ تُدَايِبُ «أَبَا الشَّرْقِ»: «يَا لَكَ مِنْ شَرِهِ! لَقَدْ ظَلَّتْ تَطْعُمُ عَشْرَ دَقَائِقَ كَامِلَةً، دُونَ أَنْ تَشْبَعَ! أَلَا تَتْرُكُ شَذِيْيَ لِإِخْوَتِكَ الْأَخْرَيْنِ؟ إِنَّ أَخْتَكَ الْمِسْكِينَةَ «أُمُّ الشَّرْقِ» نَحِيلَةٌ مَهْزُولَةُ الْجَسْمِ؛ وَقَدْ هَمَنَى ضَعْفُهَا، وَأَقْلَقَ بَالِي، فَهِيَ لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، مُنْذُ وَلَادِتِهَا إِلَى الْآنِ. وَهِيَ لَيْسَتْ بِكُحَّاءٍ فِيمَا أَرَى. فَمَا سُرُّ ضَعْفُهَا وَهُزُّالِهَا؟ شَدَّ مَا يُزْعِجُ الْأَمْمَاتِ مَرْضُ أَبْنَائِهِنَّ!»

(٤) حُلْمُ مُرْعِجُ

وَنَعُودُ إِلَى «أُمُّ يَعْفُورَ»: تِلْكَ الْكَلِبَةُ الْوَفِيَّةُ الْمُخَلَّصَةُ، لِنَرِى: مَاذَا حَدَثَ لَهَا؟ لَقَدْ رَدَدْتُ عِنْدَ بَابِ الْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ، وَظَلَّتْ تَلْتَقِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَتُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً: «إِنَّ صَدِيقَتِي «أُمُّ خِداشَ» لَيْسَتْ — فِيمَا أَعْلَمُ — حَمْقَاءً. وَلَعِلَّ سِرَّ انْزِعَاجِهَا، وَمَصْدَرَ غَضِيبِهَا، أَنَّهَا لَمْ تَنْلَ حَظَّهَا مِنَ النَّوْمِ الْمُرِيَّحِ، فَاصْطَرَبَتْ لِذَلِكَ، وَغُلِبَتْ عَلَى أَعْصَابِهَا. وَسَاصِبُرَ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْزِلَ، فَأَفَقَفَرَ إِلَى رَقَبَتِهَا، لِأُقْبِلَهَا، وَأَزْيَلَ كُلَّ مَا فِي نَفْسِهَا مِنْ عَتْبٍ وَمَوْجِدَةً». وَإِنَّهَا لَتُحَدِّثُ نَفْسَهَا بِذَلِكَ، إِذْ طَرَقَ سَمْعُهَا صَوْتُ يُنَادِيهَا!

فَوَقَفَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»، وَالْتَقَتْ إِلَى صَدِيقَتِهَا، قَائِلَةً: «إِلَى اللَّقَاءِ يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ! إِنَّ سَيِّدِي «الْوَلِيدَ» يُنَادِيَنِي «يَا أُمُّ خِداشَ». وَلَا بُدَّ لِي مِنْ تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ. فَهُلْ غَرَّتِ لي زَلَّتِي، أَيْتُها الصَّدِيقَةُ؟»

فَلَمْ تُجِبْهَا «أُمُّ خِداشَ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. فَذَهَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مَحْزُونَةً، وَتَدَلَّلَتْ ذَنْبُهَا مِنَ الْأَلَمِ، وَأَغْرَوَرَقَتْ عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ.

أَمَّا صَاحِبَتْهَا «أُمُّ خِداشَ»، فَقَدْ شَغَّالَهَا أَمْرُ أَبْنَائِهَا، فَظَلَّتْ تُرْضِعُهُمْ — وَاحِدًا وَاحِدًا — حَتَّى إِذَا أَفْطَرُوا وَقَفَتْ مُتَنَاهِيَّةً، رَافِعَةً ذِيَّهَا، مُقَوْسَةً جِسْمَهَا. ثُمَّ قَالَتْ لِأَطْفَالِهَا: «لَقَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَنَامُوا — أَيْهَا الْأَعْزَاءُ — فَقَدْ اشْتَدَّ بِي الْمُجُوعُ. وَلَا بُدَّ لِي مِنِ التِّنَاسِ نَصِيبِي مِنَ الْقُوَّةِ. وَقَدْ سَالَ لِعَابِي شَوْقًا إِلَى لَحْمِ الْفَأْرَةِ. وَلَا مَعْدَى لِي عَنْ جَوْلَةِ أَجْوَلُهَا فِي مَخْزَنِ الْغِلَالِ لِاصْطِيَادِ فَأْرَةٍ. وَسَاعَوْدُ إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَنْ أَوَّقَ فِي مَسْعَاهِي. وَسَرَرْوْنَ أَنَّ لَحْمَ الْفَأْرَةِ هُوَ أَشَهَى طَعَامٍ فِي الدُّنْيَا».



وَرَأْتُ سَيِّدَتَهَا «سُلَافَةً» الصَّغِيرَةَ — وَهِيَ تَجْتَازُ الْمَطْبِخَ — فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا تُدَاعِبُهَا؛ مُتَعَلِّقَةً بِثُوبِهَا الْأَنْيِقِ، ثُمَّ وَضَعَتْ طَرْفَ لِسَانِهَا فِي الصَّحْفَةِ — وَقَدْ جَوَفَتْهُ فَأَصْبَحَ كَالْمُلْعَقَةِ — وَالْتَّهَمَتْ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ طَعَامٍ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى مَقْعِدِ وَثِيرٍ، فَرَقَدَتْ عَلَيْهِ، وَقَدِ النَّفَّ جِسْمُهَا وَتَحَوَّى، حَتَّى أَصْبَحَ مِثْلَ الْكُرْكَةِ.

وَلَمْ تَنْسَ نَصِيبَهَا مِنَ الزِّينَةِ، وَلَا حَظَّهَا مِنَ التَّبرُّجِ وَالْأَنَاقَةِ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى شَعْرِهَا المُشَعَّثِ تُرْجِلُهُ، وَعَلَى ذَيلِهَا الْمَنْفُوشِ تَتَعَهَّدُ بِالْعِنَاءِ، وَتُمْرِ لِسَانَهَا عَلَى حُصْلَاتِ الشَّعْرِ الْبَارِزَةِ فَنَسَّقَتْهَا. وَوَقَفَتْ فِي مُنْتَصَفِ عَمَلِهَا لِتَطْرُدَ بُرْغُوتًا خَبِيثًا كَانَ يَمْشِي عَلَى رَقَبِهَا، وَاسْتَأْنَفَتْ عَمَلَهَا قَائِلَةً: «لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أُنْظَفَ وَجْهِي وَرَأْسِي..»

ثُمَّ بَلَّكْ طَرَفَ يَدِهَا الْبَيْضَاءِ بِلْعَابِهَا، وَمَرَّتْ بِهَا عَلَى رَأْسِهَا تَغْسِلُهُ، وَتَدْلُكُهُ وَتُجَفِّفُهُ.
وَهَذَا نَسَقْتُ هِنْدَامَهَا، وَأَنْتَمْ تَبُرُّجَهَا، وَأَصْبَحَ إِهَابُهَا نَاعِمًا، وَوَجْهُهَا نَظِيفًا، فَنَاهَبْتُ
لِلْخُروجِ.

أَمَا صاحِبَتُهَا «أُمُّ يَعْفُورَ» فَقَدْ صَحِبَتْ سَيِّدَهَا «الْوَالِيدَ» فِي رُحْلَةٍ طَوِيلَةٍ، وَطَافَتْ مَعْهُ
خَلَالَ الْحُقُولِ الْبَدِيعَةِ، حَتَّى أَمْسِيَ؛ فَعَادَتْ مُتَعَبَّةً مَجْهُوَدَةً، وَذَهَبَتْ إِلَى مَرْقَدِهَا مَمْهُوكَةً
الْقَوَىِ، لِتَنَامَ.

وَجَرَتْ عَلَى عَادَتِهَا — قُبَيلِ الرُّقادِ — فَظَلَّتْ تَحْكُمُ فِرَاشَهَا بِمَخَالِبِ يَدِيهَا، ثُمَّ تَدُورُ
عَلَى نَفْسِهَا مَرَّاتٍ عِدَّةً. ثُمَّ اسْتَسْلَمَتْ لِلرُّقادِ.
وَكَانَ نَوْمُهَا — فِي تِلِكَ الْلَّيْلَةِ — مُضْطَرِبًا، فَقَدِ ارْتَجَفَ جِسْمُهَا — فِي أَنْتَأِ النَّوْمِ —
وَاضْطَرَبَ ذِيْلُهَا، وَظَلَّ يَضْرِبُ الْأَرْضَ، وَتَصَاعَدَتْ زَفَارَتُهَا وَأَنَّاتُهَا مِنَ الْآلَمِ.
تُرَى مَاذَا أَصَابَ «أُمَّ يَعْفُورَ»؟

لَقَدْ رَأَتْ — فِي نَوْمِهَا — حُلْمًا مُرْعِجًا اضْطَرَبَتْ لَهُ أَعْصَابُهَا. لَقَدْ أَبْصَرَتْ صَدِيقَةَ
طُفُولَتِهَا «أُمَّ خِداشَ» وَهِيَ واقِفَةٌ أَمَامَهَا، وَقَدْ أَخْرَجَتْ مَخَالِبَهَا الطَّوِيلَةَ، وَهَمَتْ بِأَنْ تَفَقَّأَ
بِهَا عَيْنَيْهَا؛ فَنَهَضَتْ مِنْ رُقَادِهَا مَذْعُورَةً خَائِفَةً.

(٥) بَعْدَ أَسْبُوعٍ

وَمَضِي أَسْبُوعٌ طَوِيلٌ، وَالْقَاطِيْعَةُ مُسْتَحْكِمَةٌ بَيْنَ الصَّدِيقَتَيْنِ. فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» — ذَاتَ
يَوْمٍ — وَهِيَ تُحَدِّثُ نَفْسِهَا: «مَهْمَا تُمْعِنْ صَدِيقَتِي فِي هَجْرِهَا وَغَضِيبِهَا، فَإِنِّي أُحِبُّهَا؛ كَمَا
أُحِبُّ أُولَادَهَا جِيمِعًا، وَإِنَّ شَوْقِي إِلَى رُؤْيَتِهِمْ لَشِدِيدٌ.»

ثُمَّ لَمَحَتْ «أُمَّ خِداشَ» سَائِرَةً فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «هَاها. هَا هِيَ ذِي
صَدِيقَتِي خَارِجَةً، فَمَاذَا عَلَيَّ إِذَا ذَهَبَتْ لِرُؤْيَةِ قُطْبِيَّاتِهَا الْعَزِيزَاتِ؟»
ثُمَّ أَسْرَعَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ» إِلَى غُرْفَتِهِنَّ الصَّغِيرَةِ، وَوَقَفَتْ تَحْتَ صُندُوقِهِنَّ، وَسَمِعَتْ
مُوَاءَهُنَّ الْمُعْجِبَ الْمُطْرِبَ، وَرَأَتْهُنَّ خَارِجَاتٍ إِلَى حَافَةِ الصُّنْدُوقِ.

فَقَالَتْ: «هَا هِي ذِي عُيُونَهُنَّ قَدْ تَفَتَّحْتَ، فَأَصْبَحْنَ أَكْثَرَ جَمَالًا، وَأَبْهَى مَنْظَرًا مِمَّا كُنَّ مُنْذُ أُسْبُوعٍ. لَعَلَّكُنْ تُرِدُّنَ النُّزُولَ، أَيْتُهَا الصَّغِيرَاتُ! أَلِيْسَ كَذَلِكَ؟ هَا هُو ذَا قِطْعَ يُبَطِّلُ بِرَأْسِهِ الْكَبِيرِ، وَيَنْحَنِي خَارِجَ الصُّندُوقِ، فَيُعَرِّضُ، نَفْسَهُ لِخَطَرِ السُّقُوطِ عَلَى الْأَرْضِ.» ثُمَّ صَاحَتْ – مَذْعُورَةً – تَقُولُ: «عُدْ إِلَى مَكَانِكِ مِنَ الصُّندُوقِ، أَيْهَا التَّاعِسُ، فَإِنَّكَ سَتَهُدِفُ لِلْوُقُوعِ.»

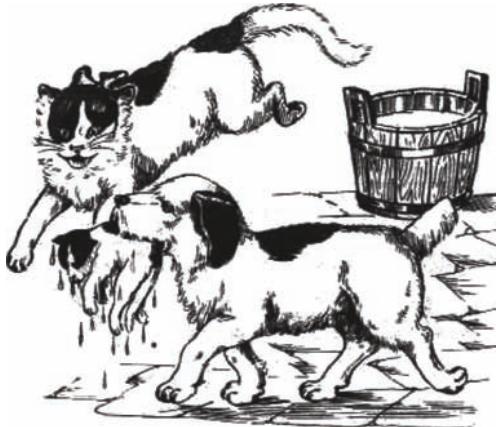
وَلَمْ تَكُنْ تُنْتَمْ جُمْلَتَهَا، حَتَّى هَوَى الصَّغِيرُ مُتَدَحْرِجًا كَالْكُرْكَةِ، وَسَقَطَ رَأْسُهُ وَسَطَ إِناءٍ مَمْلُوءٍ مَاءً. وَبَدَأَ الصَّغِيرُ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِ لِإنْقَادِ نَفْسِهِ مِنَ الْغَرَقِ، فَظَلَّ يُحَرِّكُ يَدِيهِ وَرْجَلِيهِ، سَابِحًا – جُهْدٌ طَاقَتِهِ – وَهُوَ رَافِعٌ أَنْفَهُ الْوَرْدِيَّ. وَسُرْعَانَ ما أَدْرَكَهُ الْأَعْيَاءُ، وَتَسَرَّبَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ إِلَى فِيمَهُ، فَأَشَرَّفَ عَلَى الْهَلَاكِ، وَغَوَّثَ يَطْلُبُ النَّجَادَةَ صَائِحًا: «مِيَاوْ! مِيَاوْ! أَدْرِكِينِي يَا أُمَّاهُ! أَغِيَثِينِي يَا أُمَّاهُ!»

فَقَالَتْ «أُمْ يَعْفُورَ»: «يَا لَهَا الصَّغِيرِ التَّاعِسِ الْمِسْكِينِ! إِنَّهُ – لَا مَحَالَةَ – هَالِكُ. فَمَاذا أَصْنِعُ لِأَنْقَذَهُ؟»

ثُمَّ عَنَتْ لَهَا فِكْرَةٌ رَشِيدَةٌ مُفَاجَّةٌ، فَقَفَرَتْ إِلَى الْإِناءِ مُسْرِعَةً. وَكَانَتْ «أُمْ يَعْفُورَ» – كَمَا أَسْلَفْنَا – صَغِيرَةً جِدًّا، فَوَصَلَ الْمَاءُ إِلَى أَذْنِيهَا، وَلَكِنَّ مُرْوَعَتَهَا أَبْتَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَرَكَ ذَلِكَ الْمِسْكِينَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَوْتِ أَمَامَ عَيْنِيهَا؛ فَلَمْ تُبَالِ مَا سَتَهُدِفُهُ مِنْ خَطَرٍ، وَأَمْسَكَتْ بِرَفِقَةِ الْقِطْطِ الصَّغِيرِ، وَقَفَرَتْ بِهِ، وَهِيَ تَحْمِلُهُ إِلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ.

وَظَلَّ «أَبُو الشَّرْقِ» يَعْطُسُ وَيَرْتَعِشُ، وَرَقَدَتْ «أُمْ يَعْفُورَ» الطَّيِّبَةُ الْقَلْبِ إِلَى جَانِيهِ مُشْفَقَةً عَلَيْهِ، تُؤْسِيَهُ وَتُدْفَنَهُ، وَتَمْسَحُهُ بِلِسانِهِ الْلَّطِيفِ، وَتَحْنُو عَلَيْهِ – حُنُو الْأَمَاتِ عَلَى أَطْفَالِهَا – وَتَهُونُ عَلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنَ الْأَلمِ وَهُمُّ. وَإِنَّهَا لَتَعْنَى بِهِ، إِذْ دَوَّتْ صَيْحَةً عَالِيَّةً فِي الْمَكَانِ، فَتَلَفَّتْ «أُمْ يَعْفُورَ»، فَرَأَتْ أَمَامَهَا «أُمْ خِداشَ» تَكَادُ تَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ، وَهِيَ تَقُولُ لَهَا مُهْتَاجَةً ثَائِرَةً: «مَاذَا تَصْنَعِينَ هُنَا، أَيْتُهَا السَّفِيهَةُ؟» فَأَرْتَاعَتْ «أُمْ يَعْفُورَ»، وَأَمْتَلَأَ قَلْبُهَا رُعْبًا.

فَقَالَتْ «أُمْ خِداشَ» مُغْضَبَةً: «كَيْفَ جَرُوتَ عَلَى أَنْ تَغْسِلِي وَلَدِي، مِنْ غَيْرِ أَنْ سَتَأْذِنِنِي فِي ذَلِكَ؟»



فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»، وَهِيَ تَكَادُ تَذُوبُ مِنْ فَرْطِ الْحَيَّةِ وَالاضْطِرَابِ: «أَصْغِي إِلَيَّ، يَا أُمَّ خِداشَ»، فَمَا أَنَا بِخَادِعٍكِ، وَلَا بِكَاذِبٍكِ الْخَبْرَ: لَقَدْ سَقَطَ وَلَدُكِ الصَّغِيرُ «أَبُو الشَّرْقِ» فِي حَوْضِ الْمَاءِ، وَكَانَ يَقْفِرُ لَاهِيًّا فَوْقَ الصَّنْدُوقِ وَ....»

فَقَالَ «أَبُو الشَّرْقِ»، وَهُوَ يَبْكِي: «لَقَدْ صَدَقْتِ الْقَوْلَ — يَا أُمَّاهَ — وَقَدْ هَوَيْتُ إِلَى حَوْضِ الْمَاءِ، عَنْ غَيْرِ عَدِّيِّ، وَأَشَرَّفْتُ عَلَى الْعَرْقِ، وَلَوْلَاهَا لَأَصْبَحْتُ فِي عِدَادِ الْهَالِكِينَ».

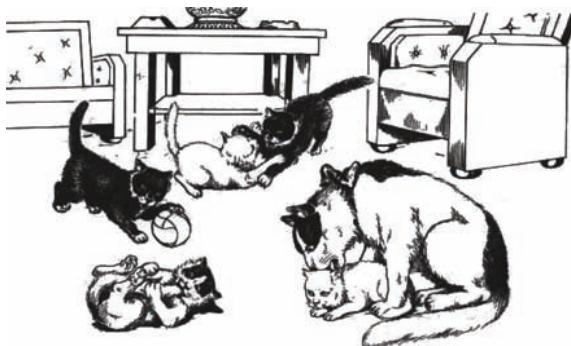
فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا «أُمُّ خِداشَ»، وَقَدْ أَكْبَرْتُ لَهَا تِلْكَ الْمُرْوَعَةِ، وَشَكَرْتُ لَهَا صَنِيعَهَا، وَقَالَتْ لَهَا فِي ضَرَاعَةٍ وَحُشُوعٍ: «مَنْ لِي بِمُكَافَأَتِكِ عَلَى هَذِهِ الْيَدِ الْبَاقِيَّةِ، الَّتِي لَنْ أَنْسَاهَا لَكِ مَدِيَّ الْحَيَاةِ؟ لَقَدْ أَسَلَفْتُ إِلَيْكِ الْإِسَاءَةِ، وَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ تَجْزِينِي عَلَيْهَا بِالْإِحْسَانِ. فَهَلْ تَغْفِرِينِي لِي زَلَّتِي، أَيْيُهَا الصَّدِيقَةُ الْكَرِيمَةُ الْبَارَّةُ؟»

فَامْتَلَأَ قَلْبُ الْكَلْبَةِ فَرَحًا، وَظَلَّتْ تَقْفِرُ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ، قَاتِلَةً: «لَقَدْ غَفَرْتُ لَكِ كُلَّ شَيْءٍ. عَلَى أَنَّنِي لَنْ أَنْسَى أَنَّنِي كُنْتُ سَبَبًا — مُنْذُ أَيَّامٍ — فِي إِسَاءَتِكِ وَإِيْغَارِ صَدْرِكِ عَلَيَّ. وَقَدْ تَمَّ سَعَادَتِي — الْآنَ — بَعْدَ أَنْ سَادَ الصَّفَاءُ قَلْبَيَا، وَعُدْنَا صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَيْنِ».

وَأَسْرَعَتْ «أُمُّ خِداش» إِلَى صَغِيرِهَا — وَكَانَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرِدِ وَهُوَ مُلْقٌ عَلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ — فَحَمَلَتْهُ بِأَسْنَانِهَا، وَأَعْادَتْهُ إِلَى الصُّنْدُوقِ، وَظَلَّتْ هَذِهِ الْكَارِثَةُ شُغْلًا لِلشَّاغِلِ، طُولَ يَوْمِهَا.

(٦) بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ

وَمَرَرَتْ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ أَسَابِيعٌ ثَلَاثَةُ، وَأَصْبَحَتِ الْخَمْسُ الصَّغِيرَاتُ قَادِرَةً عَلَى اللَّعِبِ فِي غُرْفِ الْبَيْتِ، وَالْجَرْبِيِّ فِي فِنَائِيهِ وَسِرْدَابِهِ.



وَظَلَّتْ تَقْفُزُ وَتَتَدَحرِجُ مَا شاءَتْ لَهَا رَغْبَاتُهَا، وَتَشْتَكِّ — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — فِي مُنَاوَشَاتٍ ظَرِيفَةٍ. وَيُطَارِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَفَقَقَ مَا تَشْتَهِي وَتُتَرِيدُ. وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَلْعُبُ فِي عُزْلَةٍ عَنِ إِخْوَتِهِ. وَيَدُورُ بِدَنِيهِ، كَمَا تَدُورُ النَّحْلَةُ، وَيُدَاعِبُ ذَلِيلَهُ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشًا كُلَّمَا رَأَاهُ يَسِّقُهُ فِي أَثْنَاءِ جَرِيَّهِ، ثُمَّ يَغْضَبُ مِنْهُ وَيُثُورُ ثَائِرُهُ عَلَيْهِ، فَيُشِّبُّ أَنْيابَهُ فِي ذَلِيلِهِ وَيَعْصُهُ، ثُمَّ يَصْرُخُ مِنْ فَرْطِ الْأَلَامِ، وَيُسْرِعُ إِلَى رُكِّنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ، نَادِيًّا عَلَى عَمَلِهِ، ثُمَّ لَا يَلْبِسُ — بَعْدَ أَنْ يَسْسَى الْأَلَامَ — أَنْ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ مَا صَنَعَ! أَمَّا «خِداش» فَقُدْ كَانَتْ لَا تُفَارِقُ أَمْهَا فِي حَلٌّ وَتَرْحَالٍ. وَكَانَتْ أَمْهَا تَضَعُ يَدِيهَا الْبَيْضَاوَيْنِ عَلَى رَقَبَةِ «خِداش»، ثُمَّ تَحْكُ «خِداش» أَنْفَهَا الصَّغِيرَ الْوَرْدَيِّ بِأَنْفِ أَمْهَا



مُوَدَّدَةً مُتَلَطِّفةً. وَقَدْ سُعِدَتْ «أُمُّ خِداش» بِأَبْنائِهَا الْأَعْزَاءِ، وَكَانَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» تُشَاطِرُهَا هَذِهِ السَّعَادَةَ، وَتَفَرَّحُ لِفَرَحِهَا.

وَكَانَتْ «أُمُّ خِداش» تَقْسُو – أَحْيَانًا – عَلَى وَلَدِهَا «أَبِي غَرْوانَ» رَغْبَةً في تَقْوِيمِهِ وَتَهْذِيهِ، لِأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ تُنْشَئَ أُولَادَهَا أَحْسَنَ تَنْشِيَةً، وَتَطْبِعُهُنَّ عَلَى غُرَارِ الْقِطَاطِ الْمُهَذَّبِ، وَتَعْوِدُهُنَّ النِّظَامَ وَالطَّاعَةَ وَحُسْنَ الْأَدْبِ. وَلَا تَأْلُوا جُهْدًا في عَسْلِهِنَّ وَتَنْظِيفِهِنَّ دَائِمًا. وَكَانَ «أَبُو غَرْوانَ» – عَلَى الْحَقِيقَةِ – مَصْدَرَ عَنَائِهَا وَأَلْمَهَا؛ لِأَنَّهُ شَرِسُ الطَّبَّعِ، مُحِبٌّ لِلمُشَاكِسَةِ، مَيَالٌ إِلَى الْأَدَى.

وَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ تَرِي فِيهِ صُورَةً كَامِلَةً لِعَمَّهِ «أَبِي السَّنَانِيرِ». وَهُوَ قَطُّ هَرِمُ، يَقْضِي حَيَاَتَهُ فِي الْمُخَاطَرَاتِ، وَاقْتِنَاصِ الطَّيْوِرِ، وَالْجَرْيِ عَلَى الْمَيَازِيبِ. وَكَانَتْ تُكَافِئُ الْمُؤَدَّبَ بِفَارَةَ، تَصْطَادُهَا لَهُ!

(٧) تَفَرُّقُ الشَّمْلِ

وَعَادَتْ «أُمُّ خِداش» – ذَاتَ مَسَاءٍ – مِنْ تَجْوِالِهَا، وَفِي فَمِهَا فَارَةً، وَقَفَرَتْ إِلَى صُندوقِهَا فَرْحَانَةً، وَهِيَ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا قائلةً: «مَا أَشَدَّ فَرَحَ أُولَادِي بِهَذِهِ الْهَدِيَّةِ التَّثِينِيَّةِ، وَمَا أَشَدَّ ابْتِهَا جَهَمْ بِهَذِهِ الْأَكْلَةِ الْفَاحِرَةِ!»

وَمَا إِنْ وَضَعْتُ رِجْلَهَا فِي الصُّندُوقِ، حَتَّى أَخْرَجْتُهَا مَذْهُولَةً حَائِرَةً، وَطَفَقْتُ تَعْدُو فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ كُلِّهِ مَشْدُوَهَةً وَلَهَى، وَتَصْبِحُ بِصَوْتٍ مُتَهَاجِّ مَبْحُوحٍ: «إِلَيَّ يَا أَوْلَادِي! تُرِي: أَيُّ حَادِثٍ أَلَمْ يُكُمْ؟ إِلَيَّ يَا أَبَا الشَّرْقِ! إِلَيَّ يَا أَمَّ الشَّرْقِ! إِلَيَّ يَا خِدَاشُ!» فَلَا تَسْمَعُ جَوابًا. وَبَحَثَتْ تِلْكَ الْأُمُّ التَّاسِعَةُ الْمِسْكِينَةُ — فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْبَيْتِ وَسَرَادِيهِ، وَمَخَابِيهِ وَأَغْنِيَتِهِ، وَفِي مَخْزَنِ الْغِلَالِ — عَنْ أَوْلَادِهَا، فَلَمْ تَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى أَثْرٍ. ثُمَّ لَقِيَتْ «أَمَّ يَعْفُورَ» قَادِمَةً عَلَيْهَا، وَهِيَ مَحْزُونَةٌ كَسِيرَةُ الْقَلْبِ، مُطَاطِئَةُ الرَّأْسِ، فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تَسْأَلَهَا عَنْ أَوْلَادِهَا، فَجَمَجَمَتْ «أَمَّ يَعْفُورَ» فِي لَهْجَةِ حَزِينَةٍ: «لَمْ يَبْقَ مِنْ أَوْلَادِكِ، إِلَّا «أَبُو الشَّرْقِ» وَحْدَهُ. وَهُوَ يَبْكِي تَحْتَ السُّلَمِ، أَمَا إِخْوَتُهُ فَقَدْ أَخْذُوا جَمِيعًا. وَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَضْعُهُنَّ فِي سَلَّتِهِ وَيَحْمِلُهُنَّ خارِجَ الْبَيْتِ. فَاشْتَدَ غَضَبِي وَانْزَعَاجِي لِذَلِكَ. وَهَمَّتْ أَنْ أَفِرَّ فِي وَجْهِهِ، وَظَلَّتْ أَمْلَأُ الْبَيْتِ نُبَاحًا، وَأَبْحَثَتْ عَنْكِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَيْكِ. ثُمَّ سَمِعْتُ سَيِّدَتَنَا تَقُولُ: إِنَّ الْقِطَاطَ قَدْ حُمِلَتْ إِلَى دُسْكِرِهَا الْكَبِيرَةِ، الْمُمْلَوَّةِ بِأَسْرَابِ الْفَارِ لِمُطَارَدَتِهَا، وَسَيُعْنَى بِهَا الْخَدْمُ الْعَنِيَّةُ كُلُّهَا.



فَخَفَفَ مِنْ وَجْدِ «أَمَّ خِدَاشُ» وَجَزَّعَهَا، مَا عَلِمْتُهُ مِنْ حِرْصِ سَيِّدِتِهَا عَلَى أَبْنَائِهَا الْقِطَاطِ، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ أَيَّامًا طِوالًا تَجْرِي فِي الْغُرَفِ وَالْحَدِيقَةِ وَالطَّرِيقِ، وَهِيَ تَمُوْءُ فِي حُزْنٍ وَأَلَمٍ، مُنَادِيَةً أَبْنَاءَهَا بِأَسْمَائِهِمْ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْوَجْدِ وَالْأَسْى عَلَى فِرَاقِهِمْ.

(٨) «لَادَةُ أُمٌّ يَعْفُورَ»

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ تَتْرَى. وَذَا صَبَاحٍ دَخَلَتْ «أُمُّ خِداشَ» الْمَطَبَخَ، فَاسْتَرْعَى بَصَرَهَا شَيْءٌ غَرِيبٌ فِيهِ. فَاَشْتَدَّ عَجْبُهَا مِمَّا رَأَتْ. وَكَانَتْ لَا تُطِيقُ أَنْ تَرَى أَقْلَّ تَغْيِيرٍ يَحْدُثُ فِي الدَّارِ، فَقَوَسَتْ ظَهْرَهَا، وَقَالَتْ – تُحَدِّثُ نَفْسَهَا – مُتَعَجِّبَةً: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ إِنَّهَا سَلَةٌ جَدِيدَةُ!» وَأَبَتْ أَنْ تَقْتَرَبَ مِنْهَا، مَخَافَةً أَنْ يُصِيبَهَا سُوءٌ. فَتَرَاجَعَتْ عَنْهَا خُطُوطَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَيَسَّرَتْ تَرْقُبَهَا حِينًا. فَلَمَّا رَأَتْهَا سَاكِنَةً لَا يَحْرُكُ فِيهَا شَيْءٌ اطْمَأَنَّتْ نَفْسَهَا، وَاقْتَرَبَتْ مِنَ السَّلَةِ، وَتَسَلَّقَتْ حَافَتَهَا، وَأَطَلَّتْ بِرَأْسِهَا فِيهَا، فَلَمْ تَرِ إِلَّا حَشِيشَا يَابِسًا مُعْطَرًا، فَلَمْ تَدْرِ: مَاذَا يُرَادُ بِهِ؟ وَظَلَّتْ تُفْكِرُ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ تَهَدِّ إِلَى حَلٍّ هَذَا الْلُّغْزُ الْخَفِيُّ.

إِنَّهَا لَغَارِقَةٌ فِي تَفْكِيرِهَا، إِذْ قَدِيمَتْ «أُمٌّ يَعْفُورَ» وَحَيَّنَتْهَا قَائِلَةً: «أَلَا تَعْرِفِينَ – يَا أُمَّ خِداشَ – أَنَّ هَذِهِ السَّلَةَ، هِيَ سَرِيرِيُّ الْجَدِيدُ؟ لَقْدْ هَمَمْتُ بِالْأَفْضَاءِ إِلَيْكِ – مُنْذُ أَيَّامٍ – بِهَا السَّرُّ يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةُ.»

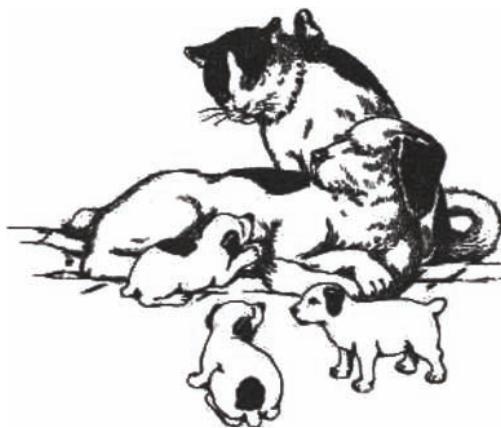
فَقَالَتْ «أُمُّ خِداشَ»: «أَيُّ سِرٌّ تَعْيَّنَ؟»

فَقَالَتْ «أُمٌّ يَعْفُورَ»: «اعْلَمِي أَنِّي سَاصِحٌ أَمًا بَعْدَ قَلِيلٍ. وَقُدْ أَحْضَرَتِ لِي سَيِّدِتِي «سُلَافَةُ» هَذِهِ السَّلَةُ مَسَاءً أَمْسِ وَقَالَتِ لِي: «هَاكَ سَرِيرِكَ الْجَدِيدُ، أَيَّتُهَا الْكُلْبَةُ الْأَمِينَةُ الْمُخْلِصَةُ، لِيَسْتَرِيحَ فِيهِ أُولَادُكَ الْأَعْزَاءُ. وَقُدْ فَطَنَتِ تِلْكَ الْفَتَاهُ الْذَّكِيَّةُ إِلَى حَقِيقَةِ أَمْرِيِّ، وَأَدْرَكَتِ السَّرُّ الَّذِي حَجَبَتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَنْ فِي الْبَيْتِ. وَقُدْ كُنْتُ أُوْثِرُ أَنْ أُفَاجِهُمْ بِمَا يُدْهِشُهُمْ، وَلَكُمْ أَدْرَكُوا كُلَّ شَيْءٍ!»

وَمَرَّتِ أَيَّامٌ قَلَائلُ، وَامْتَلَأَ الْبَيْتُ فَرَحًا بِولَادَةِ «أُمٌّ يَعْفُورَ».

وَكَانَتْ «سُلَافَةُ» مُبْتَهِجَةٌ بِذَلِكَ، وَقُدْ امْتَلَأَ قَلْبُهَا سُرُورًا، حِينَ رَأَتْ أَمَامَهَا ثَلَاثَةَ أَجْسَامٍ ضَخْمَةٍ تَمَلَّأُ قَاعَ السَّلَةِ.

وَسُرْعَانَ مَا قَدِيمَتْ «أُمُّ خِداشَ» لِتُهَنِّئَ صَدِيقَتَهَا، وَتَقُولُ لَهَا: «شَدَّ مَا بَهَجَتِنِي وَلَادِتِكُ، أَيَّتُهَا الصَّدِيقَةُ الْحَبِيبُ. وَلَكِنِي شَدِيدَةُ الْعَجَبِ مِمَّا أَرَى، فِإِنَّ أُولَادِكَ لَا يُشْبِهُونِكِ فِي أَيِّ سِمَّةٍ مِنْ سِمَاتِكِ حَتَّى لَيُخَيِّلَ إِلَى مَنْ يَرَاهُمْ أَنَّهُمْ أَغْرَابُ عَنْكِ!»
 ثُمَّ التَّفَقَتْ إِلَى أَحَدِ أَبْنَائِهَا قَائِلَةً: «لَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الصَّغِيرُ الْلَّطِيفُ، مَا أَجْمَلَ شَعْرَكَ الْجَعْدَ، وَأَذْنِيْكَ الطَّوَّلَيَّتَيْنِ! مَاذَا أَسْمَيْتُهُمْ، يَا أُمَّ يَعْفُورَ.»



فَقَالَتْ «أُمٌ يَعْفُورَ» وَوَجْهُهَا يَتَطَلَّقُ بِشْرًا وَسُرُورًا: «أَمَّا هَذَا الْكَلْبُ السَّمِينُ، فَقَدْ أَسْمَيْتُهُ «الْوَاشِقَ». وَسَيَكُونُ — فِيمَا أَتَوْسُمُ — طَيْبَ الْقَلْبِ، لَا يُحِبُّ الْخِصَامَ، وَلَا يَجْنَحُ إِلَى الْأَذْى، أَمَّا تِلْكَ الْكَلْبَةُ الْجَاثِمَةُ أَمَامِكِ، فَقَدْ دَعَوْتُهَا «أُمٌ وَازِعٌ». وَأَمَّا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ، فَقَدْ أَسْمَيْتُهُ «وَثَابًا». وَهُوَ — فِيمَا أَحْدِسُ — مَشَاكِكُ. فِإِنَّ مَخَايِلَ الشَّرَاسَةِ تَبُدُّ عَلَيْهِ، فَهُوَ — فِيمَا يَلُوحُ — أَخْبَثُ مِنْ قَرْدٍ!»
فَقَالَتْ «أُمٌ خِداشَ» مُعايِثَةً مُدَاعِبَةً: «شَدَّ مَا ظَلَمْتِ الْقِرْدَ. فَهَلَّا قُلْتِ: إِنَّهُ أَخْبَثُ مِنْ إِنْسَانٍ!»

(٩) مَرَضُ «أُمٌ يَعْفُورَ»

وَكَانَ الصَّغَارُ يَطْعَمُونَ، وَالصَّدِيقَاتِ تَنْتَظِرَانِ إِلَيْهِمْ، وَتَرْعَانِهِمْ يُعْيِّنُنِ كُلُّهَا حُنُّ وَإِحْلَاصُ. ثُمَّ قَالَتْ «أُمٌ يَعْفُورَ»: «اِصْغِي إِلَيَّ، فَقُدْ حَانَ وَقْتُ الْاعْتِدَارِ إِلَيْكِ مِنْ تِلْكَ الْهَفْوَةِ الَّتِي أَتَيْتُهَا مُنْذُ حِينَ؛ فَإِنِّي أَرَى أَنَّ صِغَارِيْ غَمِيْنُ أَيْضًا. وَلَا أَرَى فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُصُ مِنْ حُسْنِهِمْ وَجَمَالِهِمْ. بَلْ إِنِّي لَأَرَاهُمْ قُدْ اسْتَوْفَوا غَایَاتِ الْجَمَالِ وَالرَّوْعَةِ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»: «كُوئِي عَلَى ثِقَةِ أَنَّنِي قَدْ نَسِيْتُ مَوْجِدَتِي عَلَيْكِ، مُنْذُ زَمِنِ طَوِيلٍ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَذْكُرُهَا قَطُّ. وَلَيْسَ أَحَبَّ إِلَى نَفْسِي مِنْ رُؤْيَا أَطْفَالِكِ يَلْعَبُونَ مَعَ وَلَدِي «أَبِي الشَّرْقِ». وَسَيِّرَتِهِمْ حَيْرَ رُفْقَةٍ: يَأْسُ بِهِمْ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِمْ.»

فَشَكِّرَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» لِصِدِيقَتِهَا «أُمُّ خِداش» كَرَمَ نَفْسِهَا، وَصَفِحَهَا عَنِ الْإِسَاعَةِ وَأَخْدَثَتْ نَفْسَهَا – مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ – بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا، وَالْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ. وَلِزَمْتُ فِرَاشَهَا، بِاِذْلَةِ كُلِّ وُسْعِهَا فِي السَّهْرِ عَلَى أَطْفَالِهَا، وَتَعْهِدْهُمْ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، شَانُ الْأَمَّاتِ دَائِمًا. وَأَصْبَحَتْ لَا تُفَكَّرُ فِي التَّجْوَالِ وَالْجَرِيِّ، وَأَتَرَتْ أَنْ تَتَعَهَّدَ أُسْرَتَهَا عَلَى كُلِّ شَأنٍ مِنْ شُؤُونِهَا.

وَلَمَّا فَتَحَ الْكِلَابُ الصَّغَارُ أَعْيَنْهُمْ – لِلْمَرَّةِ الْأُولَى – كَانَتْ أُمُّهُمْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنِ الْفَرَحِ بِهِذِهِ الْمُفَاجَأَةِ السَّارَّةِ، لِأَنَّ الْمَرْضَ – فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ – قَدْ حَلَّ بِهَا، وَنَهَكَ قُواهَا. وَقَدْ شَكَّتْ إِلَى صِدِيقَتِهَا «أُمُّ خِداش» – حِينَ قِدَمَتْ لِزِيَارَتِهَا فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ – مَا حَلَّ بِهَا مِنَ السَّقَامِ، وَقَالَتْ لَهَا فِي لَهْجَةِ حَزِينَةٍ: «لَقَدْ قَضَيْتُ – أَمِسِ – لِيَلَةً مُفْزَعَةً هَاهِئةً، وَلَا أَدْرِي: مَاذَا أَصَابَنِي؟ وَقَدْ عَافَتْ نَفْسِي – مُنْذُ ظَهَرَ أَمِسِ – وَعَجِزْتُ عَنْ تَعْهِيدِ صِغَارِيِّ الْضَّعَافِ. وَلَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»: «إِنَّ شِفَاءَكِ مَيْسُورٌ، فَقُدْ حَلَقَ اللَّهُ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، وَلِكُلِّ مَرْضٍ عِلَاجًا شَافِيًّا. وَلَعُلَّ أَمِكَ قَدْ عَرَفْتَكِ بِذَلِكَ النَّبَاتِ الْقَصِيرِ، الَّذِي يَنْبُتُ عَلَى حَافَةِ الْطَّرِقِ، وَحَدَّثَكِ عَنْ فَائِدَتِهِ الْمُحَقَّقَةِ. فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْخَوَاصِ الْعَجِيَّةِ، مَا يَكُفُّلُ لِكِ الشُّفَاءَ الْعَاجِلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «إِنِّي مُلِبِّيَّ نَصِيحَتِكِ، فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ بِحِرَاسَةِ أُولَادِيِّ، حَتَّى أَكُلَّ مِنْ ذِلِكَ الدَّوَاءِ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»: «حُبًّا وَكَرَامَةً لِكِ، يَا أُمُّ يَعْفُورَ.»

وَقَدْ خَفَّ أَلْمُ الْكَلْبَةِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ بِنَصِيحةِ صَاحِبَتِهَا، وَشَكِّرَتْ لَهَا حُسْنَ رَأْيِها. ثُمَّ وَدَعَتْهَا «أُمُّ خِداش» لِتَنْجِزَ بَعْضَ شَأْنِهَا.

وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظَّهِيرَ، طَفَقَتْ «أُمُّ خِداش» تَلْحُسُ وَلَدَهَا «أَبَا الشَّرْقِ» – بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ غَدَاءَهُ – ثُمَّ أَسْرَعَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا؛ فَحَرَّنَهَا مَا رَأَتْهُ عَلَيْهَا مِنْ أَمَارَاتِ الْضَّعْفِ وَالْأَلَمِ. فَقَدْ

وَجَدْتُهَا مَطْرُوحةً عَلَى الْأَرْضِ، لَا حِراكَ بِهَا؛ وَقُدْ جَمَدَتْ سُوقُهَا، وَسَكَنَ ذَنْبُهَا؛ فَأَصْبَحَتْ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ!



فَصَرَخَتْ مُتَآلِمَةً: «وَيْلَاهُ! لَقْدِ مَاتَتْ صَدِيقَتِي الْحَمِيمُ!»

فَتَحَرَّكَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» حَرَكَةً صَغِيرَةً، وَهِيَ تَرْتَعِشُ، وَتَنْفَسُ بِجَهْدٍ جَهِيدٍ. فَسَأَلَتْهَا «أُمُّ خِداش» فِي صوتٍ مَمْلُوءٍ حُنُواً وَإِشْفَاقًا: «أَلَمْ يُجِدِ الدَّوَاءُ الَّذِي وَصَافَتُهُ لَكِ، يَا عَزِيزَتِي؟» فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَقَدْ كَادَتْ تَخْنَقُهَا الْعَبَراتُ: «كَلَّا — يَا أُمَّ خِداش — لَقْدِ انتَابَتِنِي حُمَى خَبِيثَةٌ، وَأَصْبَحْتُ أَحْسَنُ أَنْ فَمِي يَلْتَهِبُ. وَزَادَ حُزْنِي، وَأَقْلَقَ بِالِّي: مَا سِمعْتُهُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ!»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كَلَامَهَا قَائِلَةً: «أَهٗ لَوْ تَعْلَمَيْنَ وَقْعَ تِلْكَ الْكَارِثَةِ الْمُفَاجِيَةِ! لَقْدِ جَاءَ سِيدِي فِي هَذَا الْيَوْمِ — وَمَا إِنْ رَأَيْتِ، حَتَّى قَالَ: إِنَّ «أُمَّ يَعْفُورَ» مَصَابَةً بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَلَا بَدَّ مِنْ إِقْصَائِهَا. فَأَمْتَلَّ قَلْبِي دُعْرًا حِينَ سِمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ الْهَائلَ، وَانْقَضَ عَلَى قَلْبِي انِقْضَاصَ الصَّاعِقَةِ. وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَى بَنَاتِ أَعْمَامِي مُصَابَةً بِهَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ، وَأَخَذَهَا الرِّجَالُ وَقَتَلُوهَا. وَأَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ مَصْرِعِي وَشِيكٌ، وَأَنَّنِي مُلَاقِيَّةٌ مِثْلَ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُفْرِعَةِ. فَكَيْفَ يَعِيشُ أَطْفَالِي الْمَسَاكِينُ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِداش»، وَالدُّمُوعُ تَرْجُحُ فِي مَآقِيهَا: «هَوَّنِي عَلَيْكِ — يَا أَخْنَاهُ — وَلَا تَتَعَجَّلِي الْحَوَادِثَ. فَلَعَلَّ السَّيِّدَ وَاهْمُ فِي حُسْبَانِهِ!»

وَلَمْ تُتَمَّ قَوْلَهَا، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ بَيْطَرِيٌّ، قَوْيُ الْبَاسِ، وَفِي يَدِهِ حَبْلٌ. فَاقْتَرَبَ مِنْ «أُمَّ يَعْفُورَ» لِيَرْبُطَهَا بِالْحَبْلِ، فَعَلَا نُبَاحُهَا، وَكَشَرَتْ عَنْ أَنْتِيابِهَا الْمُحَدَّدةِ، وَصَاحَتْ مُتَوَعَّدَةً: «الْوَيْلُ لِكُلِّ مَنْ يَمْسِنِي بِسُوءِ!»



فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ خِداش» مُتَوَسِّلَةً ضَارِعَةً: بِرَبِّكِ لَا تَتَمَادِي فِي عِنَادِكِ، فَإِنَّهُمْ أَقْوَى مِنَّا، أَيْتُهَا الْعَزِيزَةُ. وَلَيْسَ مِنَ الْحَزَامِ أَنْ تَلْجَ فِي مُكَابِرَةٍ لَا تُثْمِرُ إِلَّا شَرًا.»
فَأَذْعَنَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» لِنِصِيحَةِ صَاحِبَتِهَا، وَأَسْرَعَتْ إِلَى أَوْلَادِهَا، فَقَبَّلُتُهُمْ جَمِيعًا، وَالْقَتْ عَلَيْهِمْ آخِرَ نَظَرَةٍ، مُوَدَّعَةً!
ثُمَّ جَرَّهَا الرَّجُلُ، بَعْدَ أَنْ شَدَّهَا إِلَى حَبْلِهِ، وَكَمْ فَاهَا بِالْحَدِيدِ، فَسَارَتْ تَتَبَعُهُ مَكْلُومَةً حَزِينَةً.

(١٠) مُرْضِعَةُ الْيَتَامَى

وَخَرَجَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» تَتَبَعُ الطَّبِيبَ راغِمَةً، وَمَشَتْ «أُمُّ خِداش» فِي آثِرِهَا، حَتَّى بَلَغَتْ فِنَاءَ الْبَيْتِ، وَقَلِيلُهَا مُنْقَبِضٌ حَزِينٌ، ثُمَّ وَدَعَنَتْهَا بِكَلَامٍ تَفِيسُ إِلْحَاصًا وَحُنُونًا، وَتَمَنَّتْ لَهَا الرُّجُوعَ سَالِمَةً.

وَلَمَّا عَادَتْ «أُمُّ خِداش» إِلَى الْبَيْتِ، سَمِعَتِ الْيَتَامَى التَّلَاثَةَ — أَبْنَاءَ «أُمُّ يَعْفُورَ» — يَعْوَنُونَ عُواءَ مُرْتَفِعًا، وَيُنَادِونَ أَمَّهُمْ، مُسْتَوْحِشِينَ لِبَعْدِهَا عَنْهُمْ. فَوَقَفَتْ «أُمُّ خِداش»

تُنْصَتُ إِلَى عُوائِهِمُ الْحَزِينَ لَحْظَةً، وَتُفْكَرُ فِيمَا تَقْعُلُهُ، لِتُؤْسِيْهُمْ وَتُسْلِيْهُمْ؛ ثُمَّ اندفَعَتْ إِلَى صُندوقِهَا، وَأَمْسَكَتْ وَلَدَهَا مِنْ عُنْقِهِ، وَحَمَلَتْهُ إِلَى سَلَةِ الْكِلَابِ الصَّغَارِ، قائلَةً: «لَقَدْ أَصْبَحَ لِي أُولَادُ أَرْبَعَةٌ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ؛ وَسَأَلَقَى — فِي سَبِيلِ تَرْبِيَتِهِمْ — مِنَ الْجَهْدِ وَالْتَّعَبِ شَيْئًا كَثِيرًا. وَلَكِنَّ الْمُرْوَةَ وَالرَّحْمَةَ تَقْضِيَانِ عَلَيَّ أَنْ أَحْتَمِلَ هَذَا الْوَاجِبَ، رَاضِيَّةً، قَرِيرَةً الْعَيْنِ؛ فَلَيْسَ لِي فِي تَرْكِهِمْ مِنْ حِيلَةٍ عَلَى أَيِّ حَالٍ!»

وَظَلَّتْ «أُمُّ خِداشَ» تَلْحُسُ الْكِلَابَ التَّلَاثَةَ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَى طِفْلِهَا «أَبِي الشَّرْقِ» يَسْمَمُهُ وَهُنَّ مَحْزُونَاتٍ. فَقَالَتْ «أُمُّ خِداشَ» لَوَلِهَا: «إِنَّكَ يَا «أَبَا الشَّرْقِ» أَكْبُرُ مِنْهُنَّ سِنًا، فَلْتُكُنْ لَهُنَّ مَثَلًا صَالِحًا يُقْتَدِي بِهِ وَيُهَتَّدِي. وَلَيْسَ لِي أَمْنِيَّةٌ أَشَهَى إِلَى نَفْسِي مِنْ أَنْ تَعِيشُوا جَمِيعًا — فِي وِفَاقٍ — حَيَاةً سَعِيدَةً، وَأَنْ تُصْبِحُوا جَمِيعًا إِخْوَةً مُخْلِصِينَ، وَأَصْفِياءً مُتَحَابِينَ؛ فَهَلْ وَعَيْتَ هَذِهِ النِّصِيحَةَ، يَا «أَبَا الشَّرْقِ»؟»

ثُمَّ اتَّفَقَتْ إِلَى الْيَتَامَى، قائلَةً: «يُلْوُحُ لِي أَنْكُمْ جَائِعُونَ!» وَنَظَرَتْ إِلَى وَلَدَهَا، وَقَالَتْ لَهُ: «أَمَا أَنْتَ — يَا «أَبَا الشَّرْقِ» — فَقَدْ كَبَرْتُ سِنًّا، وَأَصْبَحْتَ قَادِرًا عَلَى الْأَكْلِ مَعِي فِي صَحْفَتِي، مُنْدُ الْيَوْمِ».

ثُمَّ رَقَدَتْ «أُمُّ خِداشَ» قَرِيبًا مِنَ الْيَتَامَى، وَظَلَّتْ تُرْضِعُهُمْ، حَتَّى ارْتَوَوْا جَمِيعًا مِنْ لَبَنِهَا الدَّافِئِ الدَّسِيمِ، فَنَامُوا قَرِيرِي الْأَعْيُنِ، مُرْتَاحِي الْقُلُوبِ. وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُعْجَبًا مَسْرُورًا، فَهَمِسَتْ أُمُّهُ فِي أَذْنِهِ قائلَةً: «تعالَ — يَا وَلَدِي — عَلَى أَطْرَافِ أَقْدَامِكَ — فِي غَيْرِ جَلَبَةٍ وَلَا ضَوْضَاءَ — حَتَّى لَا تُوقِظَهُمْ وَهُلُمْ، فَالْعَبْ قَلِيلًا، لِتَرْوَحَ عَنْ نَفْسِكَ».

فَسَارَ مَعَهَا «أَبُو الشَّرْقِ» حَتَّى بَعْدَ عَنْ غُرْفَةِ الْيَتَامَى. وَقَالَتْ «أُمُّ خِداشَ» فِي نَفْسِهَا: «مَا أَرْوَحَ عَهْدَ الطُّفُولَةِ وَأَجْمَلَهُ! وَمَا أَسْرَعَ مَا يَنْسَى الْأَطْفَالُ هُمُومَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ بِأَيْسِرٍ شَيْءٍ!»

وَلَمَّا حَلَّ الْمَسَاءُ، جاءَتْ «سُلَافَةُ» وَالدُّهَا، وَهُمَا يَمْشِيَانِ — فِي خَفَّةٍ وَحَذَرِ — حَتَّى لَا يُرْعِجاَ الْيَتَامَى الْكِلَابَ الصَّغَارَ. فَقَالَتْ «سُلَافَةُ»، وَقَدْ وَضَعَتْ إِصْبَعَهَا عَلَى فِمْهَا: «صَهِ! صَهِ (لَا تَنْبِسْ بِبَنْتِ شَفَةِ)!»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ الْمُتَحَابَةُ — الْمُؤْتَلَفَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ الْكِلَابِ وَالْقِطَنِينِ — رَاقِدَةً جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ. وَكَانَ أَنْفُ «الْوَاسِقَ» ظَاهِرَ السَّوَادِ، وَقَدْ بَدَا مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيِّ «أُمُّ خِداشَ» وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي نَوْمِهَا الْهَنِيءِ، وَأَحْلَامِهَا الْلَّذِيَّةِ.



وَكَانَ رَأْسُ «وَثَابٍ» — الْجَعْدُ الشَّعْرِ — مُوسَدًا رَقْبَةً «أَبِي الشَّرْقِ» فَجَمْجَمَتْ «سُلَافَةً» قَائِلَةً: «يَا لَهَا مِنْ قِطْطَةٍ كَرِيمَةُ النَّفْسِ، مَوْفُورَةُ الْحَنَانِ!»

(١١) اجْتِمَاعُ الشَّمْلِ

وَمَرَّ عَلَى غِيَابِ «أُمٌّ يَعْفُورَ» خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَكَانَتْ صَدِيقَتُهَا «أُمٌّ خِداشَ» دَائِمَةُ الْحُنَينِ إِلَيْهَا، وَقَدِ اشْتَدَ شَوْقُهَا إِلَى رُؤْيَايَهَا؛ وَزَادَ هُمْهُا وَوَحْشَتُهَا، لِأَنْقَطَاعِ أَخْبَارِهَا عَنْهَا. وَكَانَتْ «أُمٌّ خِداشَ» تَسِيرُ فِي الطَّرَيِقِ — كُلَّ صَبَاحٍ — إِلَى مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ وَهِيَ تُنَادِي بِصَوْتٍ مَحْزُونٍ تَكَادُ تَخْنَقُهُ الْعَبَراتُ: «إِلَيْيَّ يا «أُمَّ يَعْفُورَ»! إِلَيْيَّ أَيْتُهَا الْحَبِيبَةُ النَّائِيَةُ!»

فَلَا تَسْمَعُ — لِنِدَائِهَا — صَدِيَّ، وَلَا يُلْبِي دُعَاءَهَا أَحَدٌ؛ فَتَعُودُ إِلَى بَيْتِهَا، مَهْمُومَةً الْقُلْبِ كَاسِفَةُ الْبَالِ!

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ السَّادِسُ عَشَرَ، خَرَجَتْ «أُمٌّ خِداشَ» — عَلَى عَادَتِهَا فِي الصَّبَاحِ — وَقَطَعَتْ فِي الطَّرَيِقِ شَوْطًا بَعِيدًا، وَسَارَتْ فِيهِ — جَيْنَةً وَذَهَابًا — مَرَّتَينِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى سَلَّةِ الصَّغَارِ يَائِسَةً. وَإِنَّهَا لِتَتَعَهَّدُهُمْ بِعِنَايَتِهَا إِذْ طَرَقَ مَسْمَعُهَا صوتٌ يَنْبَعُثُ مِنْ مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ، فَتَبَيَّنَتْ فِيهِ صَوْتُ صَدِيقَتِهَا «أُمٌّ يَعْفُورَ». فَسَرَّتْ فِي جَسِيدِهَا رِجْفَةُ الْفَرَحِ وَالدَّهْشَةِ، وَانْدَفَعَتْ مُسْرِعَةً مِنِ السَّلَّةِ، وَهِيَ تَصْبِحُ مُرَحَّبَةً بِصَدِيقَتِهَا الْحَبِيبِ! وَتَبِعَهَا الْأَطْفَالُ —

جُهْد طاقَتِهِمْ — وَظَلُّوا يَسْقُطُونَ وَيَنْزَلُونَ، مُتَعَثِّرِينَ فِي سَيِّرِهِمْ؛ وَقدْ صَاحَتْ فِيهِمْ «أُمْ حِداش»: «ضَاعِفُوا مِنْ عَرَائِمُكُمْ، وَقَوْوَا مِنْ هَمِيمُكُمْ، فَقَدْ دَانَيْنَاها». وما كَادُوا يَبْلُغُونَ الْبَابَ الْخَارِجِيِّ، حَتَّى رَأَوَا «أُمَّ يَعْفُورَ» أَمَامَهُمْ، فَصَاحَتْ «أُمْ حِداش» مُرَحِّبَةً بِصَاحِبَتِهَا، وَهِيَ تَقْفِزُ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ: «لَقَدْ طَالَتْ غَيْبَتِكِ، وَاسْتَوْحَشْنَا لِبُعْدِكِ، فَمَا أَسْعَدَنَا بِلِقَائِكِ!»



وَعَجَزَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ» عَنِ الْكَلَامِ، مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ، وَبَكَتْ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ، وَسَالَتْ عَلَى فِيمَهَا دَمْعَاتٍ كَبِيرَاتٍ. وَعَلَا نُبَاخُ أَطْفَالِهَا الصَّغَارِ. وَقَدْ التَّقَوْا حَوْلَ أُمِّهِمِ الْعَزِيزَةِ، وَالْتَّمَعَتْ عَيْنُهُمْ سُرُورًا وَغِبْطَةً، وَتَحرَّكَتْ أَذْنَابُهُمُ الصَّغِيرَةُ بِهُجَّةٍ وَحُبُورًا، وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَمْرُجُ مُوَاءً الْقَوِيَّ بِنُبَاخِ الْكَلَابِ الصَّغَارِ الْفَرْحَانَةِ!

(١٢) حوارُ الأُسْرَةِ

ورأْتُ «أمٌ يَعْفُور» أطْفَالَهَا الصُّغَارَ قَدْ امْتَلَّتْ جُسُومُهُمْ قوَّةً وَنَشَاطًا؛ وَسَمِنَتْ أَجْسَادُهُمْ، فَلَمْ تَكُنْ تُصَدِّقُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهَا، فَقَالَتْ مَدْهُوشَةً: «كَيْفَ تَحْدُكَ يَا «وَثَابُ»؟ أَلْسَتْ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ؟ فَخَبَرَنِي: هُلْ كُنْتَ – فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِي – عَاقِلًا رَزِينَا هَادِئًا؟ وَأَنْتِ، يَا عَزِيزَتِي «أمٌ وَازِعٌ»، كَيْفَ قُضِيَتِي أَيَّامِكَ بِعِدَّةٍ عَنِّي؟ وَأَنْتِ يَا «واشِقُّ»: هُلْ فَكَرَتِ في أَمْكَ الَّتِي أَوْحَشَهَا بِعَادُكَ؟ إِنِّي أَرَاكَ ضَحْمَ الْجُنَاحِ، مَمْلُوءًا صَحَّةً وَقَوَّةً!»
وَمَا دَخَلَتِ الأُسْرَةُ الْبَيْتَ، حَتَّى أَقْبَلَتْ «سُلَافَةُ» مَرَحِبَّةً بِعِودَةِ «أمٌ يَعْفُور». وَمَا رَأَتْهَا، حَتَّى حَمَلَتْهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، وَلَكِنَّ «أمٌ يَعْفُور» كَانَتْ مَمْلُوءَةً شَوْقًا إِلَى الْإِنْتِنَاسِ بِأَوْلَادِهَا، فَلَاحَسَتْ وَجْنَةً «سُلَافَةً» شَاكِرَةً لَهَا عَطْفَهَا، وَحَدَّبَهَا عَلَيْهَا. ثُمَّ انْفَلَّتْ مِنْ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، قَافِزَةً إِلَى الْأَرْضِ؛ وَسَارَتْ مَعِ صِغَارِهَا صَوْبَ السَّلَّةِ، ثُمَّ سَأَلَتْهُمْ مُتَعَجِّبَةً: «لَقْدْ كُنْتُ فِي قَلْقِ دَائِمٍ، وَهُمْ مُقِيمٌ، خَوْفًا عَلَيْكُمْ. فَمَنِ الَّذِي تَعَهَّدُكُمْ بِالْتَّغْذِيَةِ وَالْعِنَاءِ؟»

فَقَالُوا لَهَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ: «إِنَّمَا فَضَلُّ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى أَمْنَا «أمٌ خِداش» الَّتِي كَانَتْ تُغْدِيَنَا بِلَبَنِهَا، وَتُدَلِّلُنَا، وَتَحْسُنُنَا بِلِسَانِهَا، وَتُحَدِّثُنَا عَنْ أَطْيَبِ الْأَحَادِيثِ الْمُطَمِّنَةِ السَّارَّةِ، وَتُؤَكِّدُنَا أَنَّكَ عَائِدَةٌ مِنْ رِحْلِكِ، بَعْدَ زَمِنٍ قَلِيلٍ!»

فَقَالَتْ «أمٌ يَعْفُور» لِصَاحِبَتِها «أمٌ خِداش»: «هَذَا كَثِيرٌ، أَيْتُهَا الْأَحْتُ الْحَنُونُ؛ فَقَدْ أَرْبَيْتِ فِي الْفَضْلِ، وَتَجَاوَزْتِ فِي الْكَرَمِ، حَتَّى هُزِلَ جَسْمُكِ، وَسَمِنَتْ أَجْسَادُ أُولَئِكَ الشَّرِهِينَ! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْرَأَ عَيْنِي بِرُؤْيَاكُمْ، وَقَدْ جَاءَ دُورِي لِأُغْنِي بِكِ الْآنِ!»

فَقَالَتْ «أمٌ خِداش»: «لَا حَاجَةٌ إِلَيْكِ إِلَى الشُّكْرِ لِي عَلَى مَا فَعَلْتُهُ، فَإِنَّنِي لَمْ أَزِدْ عَلَى أَنْ فَعَلْتُ الْوَاجِبَ. فَدَعَيْتِي مِنْ هَذَا، وَحَبَّرَيْتِي: أَيُّ مَرِضٍ ذَلِكَ الَّذِي أَلَمَ بِكِ؟»

فَقَالَتْ «أمٌ يَعْفُور»: «لَقْدْ كَانَ السَّيِّدُ وَاهِمًا فِي حُسْبَانِهِ، حِينَ ظَنَّ أَنَّنِي مُصَابَةٌ بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْخَطَرِ، وَتَمَّ لِي الشَّفَاءُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيَّ، وَأَصْبَحْنَا كَمَا كُنَّا – بَعْدَ أَنْ كِدْنَا نَيَّاً سُمْ منَ الْلَّقَاءِ. إِنِّي لَأَعُدُّ هَذَا الْيَوْمَ أَكْبَرَ أَعْيَادِي، فَقَدْ تَمَّ لِي فِيهِ أَمَانِيٌّ، وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي..»

فَقَالَتْ «أمٌ خِداش» وَهِيَ مُبْنَهَجَةً: «وَإِنِّي لَأَرَاهُ – كَذِلِكَ – أَسْعَدَ أَيَّامِ حَيَاَتِي!»

فَهَتَّفَ الْأُولَادُ الْأَرْبَعَةُ الصَّغَارُ، وَهُمْ يَتَدْحِرُجُونَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ،
وَيَقْفِزُونَ قَفَزَاتٍ الْفَرَحِ وَالْإِبْتِهَاجِ، حَوْلَ الصَّدِيقَتَيْنِ، وَقَالُوا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ: «وَإِنَّا لَنَّا
أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَسْعَدُ أَيَّامِ حَيَاةِنَا جَمِيعًا!»